ابو فراس الحمداني (٩٣٢ — ٩٦٨)

الرجل والشاعر

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربيّة في كليّة القديس يوسف

زينُ الشباب، ابو فرا س، لم يُتَّعْ بالشباب!
(ابو فراس)

ابو فراس شابّ لم يُمتّعْ بشبابه! وابو فراس أمير لم يوفّقْ في امارته! وابو فراس شيّ توفّرت اسباب شقائه! وابو فراس شاعر يتلاهي الشباب، ومفاخر الإمارة، واعباء الشقاء! صفات لو تفرّقت في رهطٍ من الناس لكان فيها ما يدفعنا الى درسهم جميعاً، فكيف بها وقد اجتمعت في رجل واحد!

الرجل

الشابّ الأمير (٩٣٢ — ٩٥٩)

اسمه - أسرته

ابو فراس الحارث بن سعيد، بن حمدان، بن حمدون الحمداني. وُلد سنة ٩٣٢(١) من أسرة امراء كانوا في ابهة عزّهم ومجدهم. وكان جدّه حمدان قد اشتهر بالبأس في القتال، والكرم، وحسن السياسة. وغرس هذه الصفات في اولاده فشبّوا على حبّ المجد، والاستخفاف بالمعارك. ووافق ظهورهم بدء انحلال النفوذ العربي في الخلافة العباسية، ومنافسة قوّاد الشعوبيين، من فرسٍ وأتراك، في بسط سلطتهم عليها. فاغتنموا تلك الفرصة وبدأوا بالحروب، اولًا في سبيل الخليفة، ثم في سبيل مصلحتهم. فاحتلّ عبدالله، ابو سيف الدولة وعمّ شاعرنا، بلاد الموصل، واورثها ابنه الحسن المعروف «بناصر الدولة». وكان اخوة هذا وابناء عمه قد تفرّقوا في مقاطعات سوريا الشمالية فملكوها فعلًا، مع اقرارهم بسلطة الخليفة على الجميع. وكان من حظّ سيف الدولة ان سبق كلّهم الى التملّك فصار امير حمص، ثم انتزع

(١) وهي الموافقة لسنة ٣٢٠ هـ. وقيل بل كان مولده سنة ٣٢١ هـ، اي ٩٣٣ م. راجع ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ١، ص: ١٥٨.

حلب من يد اميرها احمد بن سعيد الكلابي سنة ٩٤٤ فملك فيها ، وانشأ حوله بلاطاً جمع الكثير من الادباء والشعراء واللغويين (١ . فعاونه ابناء عمه وانصاره على اقرار هذا الملك ، وكانوا له من افضل القوّاد ، واخلص المساعدين

شبابه – في بلاط سيف الدولة

في ايام هذا الملك الكريم ، الأديب ، الشجاع ، ترعرع ابو فراس ؛ فشبَّ على الفخر بجدّه ، وابيه ، واعمامه ، وخاصّة ابن عمه سيف الدولة ، امير البلاد . وكان هذا يعطف على نسيبه الصغير ويخصّه بالحب ، على ما روى الثعالبي ؛ فاتخذه في مجلسه ، وكان يأنس بحديثه ، وهو فتى بعد ، ويتوسّم فيه الخلال الطيّبة في الشجاعة والأدب

وما بلغ ابو فراس اشدّه حتى حنّك آمال ابن عمه ، فانخرط في عسكره يذود عن البلاد هجمات الروم المتعدّدة ، ويحارب الدمستق قائد قوّادهم في آسيا الصُغرى . حتى اذا سكن القتال ، عاد شاعرنا الى مجلس مليكه ، فاخذ بمذاكرة الشعراء ، ومنافسة الادباء . وكان له مع المتنبي مواقف عدّة حتى ان هذا كان «يتحامى جانبه ، فلا ينبري لمباراته ، ولا يجترئ على مجاراته» (٢ وقد ذكرنا في الروائع (٣ تلك الحادثة المشهورة اذ ابان ابو فراس عدداً كثيراً من سرقات ابي الطيب في قصيدته البديعة «واحرَّ قلباه ! . »

امير منبج

وكان سيف الدولة يقدر شاعرية ابي فراس حق قدرها ، ويجلّه لكرم اخلاقه وشجاعته ، حتى انه كان يدعوه بعض الاحيان «بسيّده» . روى ابن خلكان ان ابا فراس كان في مجلس مليكه مع جماعة من الشعراء ، فقال لهم سيف الدولة «أيكم يجيز قولي ؟ وليس له الا سيدي (٤ » يعني ابا فراس

ثم قال بيتاً فاجازه ابو فراس ، فاستحسنه المليك واعطاه ضيعة باعمال مَنبج «تغلّ الفي دينار كلّ سنة . » ولم يلبث ان صار والياً على كل تلك المقاطعة ؛ فساد

١) وقد توسعنا في ذلك اثناء درسنا للمتنبي في المشرق (٢٥[١٩٢٧] : ٨٣٥)
٢) الثعالبي : يتيمة الدهر – ج ١ ، ص : ٢٢
٣) الروائع (جزء ١٢ . [ابو الطيب المتنبي : المرائي والمفاخر والحكم] ص : ٢٩)
٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان – ج ١ ، ص : ٤٦١–٤٦٢

الى محاربة الروم ، والذود عن حماه وحمى ابن عمه . ولكنه لم يكن ليفارق سيف الدولة بسرور ، اذ انَّ البلاط وملاهيه ، ومجالسة الشعراء والادباء كانت تستهويه ؛ فظهر ذلك كثيراً في شعره

الشاب الأسير (٩٥٩ — ٩٦٦)

الأسر الاول : في خَرْشَنَة (٩٥٩)

كانت ايام هذا الأمير الشاب حروباً متوالية كما ذكرنا ، وكان من طبيعة الحال ان ينتصر مرَّةً ويفشل اخرى . وهكذا ظلّت الحرب سجالاً حتى أُسر في مغارة الكحل سنة ٩٥٩ . فحمله الروم الى خَرْشَنَة ، وهي بلدة على الفرات ، قرب ملطية ، كان فيها للروم حصن حصين يطلّ على النهر . ويظهر ان هذه البلدة كانت تتداولها ايدي العرب والروم ، فتكون تارة لهؤلاء وطوراً لاولئك ، كما نستنتج من قول ابي فراس نفسه في أسره :

ان زرتُ خَرْشَنَةً أسيرًا ، فلقد حللتُ بها منيرا . . .

اسطورة نجاته

لم يمكث الأمير الاسير طويلاً في هذا الحصن . وقد اختُلف في نجاته ، فمنهم من قال ان سيف الدولة فداه . ومنهم من قال بل هو هرب . وفي معرض هربه هذا ، تألفت اسطورة شائقة ، كثيراً ما ترافق هرب الامراء المسجونين ، وقد نقلها ابن خلكان فقال : « وفيها يقال انه ركب فرسه ، وركضه برجله ، فأهوى به من اعلى الحصن الى الفرات ؛ والله اعلم » (١ وقد نقل المعلم بطرس البستاني الحادثة نفسها في دائرة المعارف وزاد : « وهو مما لا يُعوَّل عليه » (٢

وعلى كلّ فان ابا فراس نجا من أسره ؛ ولم تنقله الروم ، هذه المرَّة ، الى القسطنطينية كما يزعم من يتبع ابا الحسن بن الزرَّاد الديلمي في روايته ، فيقول ان الشاعر لم يُؤسر الا مرةً واحدة فنقله الروم الى خَرْشَنَة ومنها الى القسطنطينية . وبيانُ صحة رأينا ان المؤرخين اتفقوا على القول ان ابا فراس اقام أسيراً في

---

١) ابن خلكان : الكتاب المذكور — ج ١ ، ص : ١٥٨

٢) البستاني : دائرة المعارف : ابو فراس الحمداني — مجلد : ٣ ، ص : ٣٠٠ ، العمود الثاني . واننا نسمع مثل هذه الاسطورة منسوبة الى بعض الامراء المسجونين ، فيركبون جيادهم ويرمون بأنفسهم من علوّ شاهق فيخلصون : من هؤلاء احد مماليك مصر ، والامير بشير . . . وكثير غيرهم .

القسطنطينية اربع سنوات ، ونحن نعرف انه خلص من القسطنطينية سنة ٣٥٥ ه. اي ٩٦٦م . فاذا اعتبرنا انه أُسر مرّةً واحدة — وهم يذكرون تاريخ أسره سنة ٣٤٨ ه. — فيكون اقام في الأسر سبع سنوات لا اربع

الأسر الثاني : في القسطنطينية (٩٦٢-٩٦٦)

ولم يخلص من محنتـه في خرشنة حتى عاود الكرة على الاعداء ، فكان ينتصر مدةً ؛ الى ان تكاثروا عليه ، وحصروه في مدينته مَنْبِج . فسقطت قلعته في تشرين الثـاني سنة ٩٦٢ ، ووقـع أسيراً في يد الروم . فحملوه هذه المرّة الى القسطنطينية حيث اقام اربع سنوات

وكأنّ سيف الدولة نسيَه ، كل هـذه المدّة ، فكانت تأتي رسائله طافحةً بالشعور الأليم ، والحنين الى الوطن ، فتلقفّاها أمه بتلهّف شديد . ولم يزل يراجو من سيف الدولة ان يذكر حسناته السالفة ، وينادبه ان يضنّ بابن عمه ، حتى فداه سنة ٩٦٦

الشاب القتيل

موت سيف الدولة (٩٦٧)

وبعد سنة من خلاصه توفي ابن عمه سيف الدولة سنة ٩٦٧ ؛ فتضعضع ذاك الملك الوطيد . وكان لسيف الدولة مولىً اسمه فرغويه طمع في التسلّط فنادى بابن سيّده ، ابي المعالي ، ملكاً على حلب راجياً ان يبسط يده ، باسم اميره ، على المملكة بأسرها

مطامع ابي فراس — قتله (٩ نيسان ٩٦٨)

وكان ابو فراس يرى من حقه أن يستولي ، ولو على قسم من مملكة ابن عمه ؛ فدخل حمص واقام فيها . فاتصل خبره بابي المعالي ، وكان هذا ابن اخته ، على ما اورد ابن خلكان عن بعض الرواة (١ . ولكن لم تمنعه القرابة من المطالبة بحقه ، فاوفد الى خاله جيشاً ضيّق عليه حتى قُتل في قرية تُعرف « بصدّد » ، كما ورد في احد التعاليق التي نقل عنها المؤرخ المذكور . واختُلف في طريقة قتله وتاريخه ، فقال المصدر نفسه انه قُتل يوم الاربعاء في ٨ ربيع الاول سنة ٣٥٧ (١٢ اذار ٩٦٨) . وذكر ثابت بن سنان الصابئ ، في تاريخه ، ان قتله كان نهار السبت في ٢ جمادى الاولى سنة ٣٥٧

١) راجع ابن خلكان : ك. م. ، ج ١ ، ص: ١٥٩

(٤ نيسان ٩٦٨) ولعلّه اصح . وقيل ان ابا المعالي لم يعلم بقتله حالًا لان فرغويه اخفى عليه ذلك ، فلما علم به شقّ عليه

وقد نسب اليه ابن خالويه شعرًا زعم انه قاله قبل وفاته مخاطبًا ابنته(١ . فحمل ذلك ابن خلكان على القول : « وهذا يدلّ على انه لم يُقتل . . . » ثم اردف : « او يكون قد جُرح وتأخر موته ثم مات من الم الجراحة . . . » ولعله الصواب . وقد ورد في نسختي برلين ما يأتي ، بعرض هذه الابيات :

« وبلغني ان ابا فراس اصبح ، يوم مقتله ، حزينًا كئيبًا . وكان قد قلق ، في تلك الليلة قلقًا عظيمًا ، فرأته ابنته امرأة ابي المثاثر كذلك ، فأحزنها حزنًا شديدًا . ثم بكت ، وهو على تلك الحالة ، فانشأ يقول ، ورجله في الركاب ، والخادم يضبط السير عليها . وانما قال ذلك كالذي ينعي نفسه وان لم يقصد ذلك . » (٢

وهناك مشكل آخر فيما يختصّ بامّ ابي فراس : فان ابن خلكان يروي انها ، لما بلّغها نعيه ، لطمت وجهها فقلعت عينها . وهي حادثة لا تدخل في طور المستحيل ، على ما فيها من الغرابة وندور الوقوع عادةً ؛ بل ان المطالع قد يحملها على محمل التفجّع والتأثر . ولكنها تصبح غريبة مستحيلة ، اذا ما عرفنا ان لأبي فراس قصيدة عاطفية رائعة يرثي فيها امّه ، التي ماتت اذ كان أسيرًا . . . بيدَ ان هذه القصيدة لم تُذكر في ديوان ابي فراس المطبوع في بيروت مرّتين ، ولم يُشر اليها الثعالبي ، وكان حقه ان يذكرها ، لو عرفها ، لانها تستحقّ الذكر . ولكنها موجودة في نسختين مختلفتين في برلين ، وفي نسخة محفوظة في اكسفورد ، وقد نقلها المستشرق دفوراك في كتابه(٣ فنقلناها عنه في الروائع (٤

فيصبح من المستحيل حلّ هذا المشكل الّا اذا رأينا انتحال القصيدة ؛ ولا شيء يسمح لنا بذلك ، وهي اشبه بشعر ابي فراس من الماء بالماء ، ولا موجب يدفع الى هذا الامر ؛ او اذا اوّلنا جملة ابن خلكان على غير معناها الظاهر ، فنصبح المقلوعة العين ام ابي المعالي ، اخت ابي فراس لا امّه . وهذه جملته نذكرها بحرفها : « قال غيره : وكان ابو فراس خال ابي المعالي وقلعت امّه سخينة عينها لما بلغها وفاته . وقيل انها لطمت وجهها فقلعت عينها . » (٥

---

١) هي الابيات الاربعة المشهورة التي اوّلها :

ابنيّتي لا تجزعي ! كل الانام الى ذهاب !

٢) D' R. Dvorák : Abû Firâs, ein arabischer Dichter und Held p. 34²

٣) راجع الكتاب المذكور ص : ١٢—١٣

٤) الروائع : (١٦ [ابو فراس] ص : ٢٦)

٥) ابن خلكان : ك . م . ج : ١ ، ص : ١٥٩

الشاعر

الديوان

جمعه

لم يكن ابو فراس ليهتمّ بجمع شعره او تنقيحه ، وهو لم يشأ ان يُعدّ من الشعراء ، كما سنرى. على انّ جمال شعره أثّر في الأديب الشهور ابن خالويه ، وكان من اصحاب مجلس سيف الدولة ، فأخذ يجمع قصائد ابي فراس ويشرحها حتى ألّف منها ديواناً متوسّط الحجم

ثم جاء ابو منصور الثعالبي فاختار من هذه القصائد الشيء الكثير في يتيمته ، خصوصاً مما يدعى « بالروميات »

طبعه – شروحه – ترجمة بعضه

لديوان ابي فراس ، حسب رواية ابن خالويه ، طبعتان ، طُبعتا في بيروت ؛ الاولى سنة ١٨٧٣ في المطبعة السليمية ، دون شروح ؛ والثانية سنة ١٩٠٠ مع شروح قليلة بقلم نخله قلفاط . ولا تخلو الطبعتان من التصحيف والتحريف.

وطبعت مختارات الثعالبي ، في يتيمة الدهر ، في دمشق . وذكرُ ابي فراس في الجزء الاول ، الباب الثالث ، ص: ٢٢ – ٦٢

على ان هناك ثلاث نسخ تتضمّن شعر صاحبنا اثنتان منها في مكتبة برلين ، وواحدة في اكسفورد . وقد استغلها المستشرق دفوراك (Dr R. Dvorak) ، فطبع فصل الثعالبي بعد ان قابله عليها ، واضاف الى ذلك قصيدة لم تُذكر الّا في النسخ المتقدّمة ؛ وهي في رثاء امه ، وقد تكلمنا عنها قبيل هذا . ثم طبع كتابه مع شروح وترجمة بالالمانية في ليدن سنة ١٨٩٥ باسم : « ابو فراس : الشاعر والبطل العربي » « Abû Firâs, ein arabischer Dichter und Held. » . وكان المستشرق وليم بن الورد (Ahlwardt) قد ترجم ايضاً الى الالمانية احدى قصائد شاعرنا الى والدته

شعره

ترفّعه عن ادّعاء الشعر – اجحاف التاريخ بحقّه

اول ما يلفت النظر في ابي فراس انه لم يدّعِ الشاعرية قط ، بل لم يشأ ان يكون شاعراً ، اذا أُريد بهذا الاسم مدّاح الأمراء والملوك او مطرّبهم في مجالس

انسهم ، وكثيراً ما كانوا يفهمونه كذلك في ذاك العصر . ولهذا نفر امرنا من لقب المستجدين والمطربين . فقال بعد ان بيّن انه يستعمل الشعر لذكر مفاخره ومفاخر آبائه :

لا في المديح ، ولا الهجا ، ولا المجون ، ولا اللعب

وقد اشمأزّ وغضب اذ قال له الدمستق : «انما انتم كتاب ولا تعرفون الحرب !» فاجابه : «نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة بالسيوف ام بالاقلام ؟» (١

وهكذا فان اول ما كان يريد ان يعرف الناس عنه انه محارب ، وهو القائل :

وصناعتي ضربُ السيوف ، وانني متعرّض ، في الشعر ، بالشعراء

وهو القائل ايضاً ، في آخر رائيته الطويلة في الفخر :

نطقتُ بفضلي ، واستدعت عشيرتي فما انا مدّاحٌ وما انا شاعرُ !

والحق يُقال ان الشعر في الامراء صفة ثانوية لا يعوّل عليها ، وخصوصاً في ذاك العصر . ولعلّ عدم اهتمام ابي فراس بشعره دفع الناس الى اهماله . اذ لا شكّ في انّ التاريخ الادبي اجحف بحقّ شاعرنا .

وعلى كل فان هذا الترفّع عن الشعر ، كان ولا يزال الشعر من كثير ممّن نرفع لهم المنابر في تاريخ الآداب ، ونفقد عليهم النعوت الطنّانة ، متدفعين بتأثير احكام الغير ، وتقليد الادباء الاقدمين . وهو شاعر لم تفته روعة الفخر ، ولا دقة الوصف ، ولا لطف العواطف الخالصة في الرثاء والصداقة والحنين

الفخر

ابو فراس اميرٌ قبل كل شيء ، وهو لا يضحّي بامارته وما يتبعها من صفات العزّ ، والانفة والترفّع ، بل هو يسخو حتى بنفسه دونها ، لانه شديد الاباء «يأكل لحمه» اذا لزم الامر ، ولكنه «لا يؤكله» اي لا يسمح لاحد ان ينال منه . وهو عارف بتمامه ، وان اجحف الزمان بحقّه ، فلم يقصّر في طلب العلى ، ولكن «كأن الدهر غافلٌ عنه» . فسمح مرّتين بأسره ، ولم يكن لبطلنا ذنب في ذلك :

أسيرتُ ، وما صحبي بنزل لدى الوغى ولا فرسي مهرٌ ، ولا ربّه غمرُ !
ولكن اذا حُمّ القضاء على امرئٍ فليس له برٌّ ، وليس له بحرُ

على ان هذا الأسر لم يكن ليغضّ من اباء الشاعر بل هو لم يزده الّا جلاء ، كالسيف يجلوه الصقل . فبقي في محله لأن الأيام دُوَل وهو «إن زار خرشنة أسيراً ،

(١) الثعالبي : اليتيمة ج : ١ ، ص : ٥٧

فلقد حل بها مغيراً » وظل على الرغم من نوائب الدهر رفيع المقام ، من سراة لا يحلون « الا الصدور او القبور » فلا يعرف عندهم التوسط .

واحر بمن كانت هذه صفاته المقتبسة من اجداد امراء ، ان يفخر على اقرانه ، ويشكو من دهره . وابو فراس لم يتردد في ذلك ، ففخر دون ادعاء ، وشكا دون تذمر . ولعل اوضح مثال لطريقته في الفخر ما كتب به الى ابي احمد جعفر بن ورقاء :

إنا ، اذا اشتد الزمـ ـنُ وناب خطبٌ وادلهمْ ،
الفيتَ ، حول بيوتنـا ، عدد الشجاعة والكرَمْ :
للقـا العدى بيض السيو ف ، وللندى حُمر النعَمْ !
هـذا وهـذا دأبُنـا : يردى دمٌ ، ويُراق دمْ !

ولا غرابة ان يفخر بشجاعته ، وهو موضوع كثيراً ما يستغله شعراء العرب . ولكنَّ ابا فراس يصبغه بصبغة جديدة من لطف الظاهر ، ودقة التصوير تخرجه عن محيط الفخر الصبياني الذي نراه احياناً في شعر بعض الجاهليين ، وعن الغلو في الادعاء الذي نتحققه في بعض ابيات المتنبي . وذلك لانه كان يصور ما اتصف به حقًّا بينما كان غيره يصف ما ليس فيه . اما الكرم ، وهو ايضاً من موضوعات العرب المفضلة ، فيذكره ابو فراس واسطةً لنيل المجد بالثناء ليس غير ، لانه يعتبر الثناء يعادل الكرم ان لم يفقه ، وهو القائل عن جده وعُفاته :

فآبوا بجـدواه ، وآب بشكرهم وما فيهما في صفقة المجد ، خاسرُ !

الوصف

هذا الامير الشاب ، المشغول بالحروب والمفاخر ، لم يكن ليغلم نفسه عن ملاهي الشباب ، ولم يكن ليستطيع ذلك دون الخروج عن عادات مقامه ومحيطه . فلزمه اذاً ان يلهو ، أوان السلم ، وان يشرب الخمر ، ويصف مجالس الانس واساليب السرور ، بدقة ورقة تذكرنا اوصاف ابن المعتز ، دون ان يرى منفرًا في ذلك

ومـا في طلب اللهو على الفتيان ، من عار !

وكأنَّ الدهر اراد ان يخرج هذا الشاب من سلك الفتيان الى حلقة الشيوخ قبل اوانه ، فأنزل الشيب برأسه ، وهو لم يتجاوز العشرين ، فتأثر طويلاً . ولكن كان له ذلك من اسباب التشكي ، والشعراء يحبونها ويتطلبونهـا ، فكيف اذا اتتهم عفواً ! فاستغل كل ذلك وترك لنا ابياتاً وصفية دقيقة في شيبه من امثال :

ومـا زادت على العشرين سنّي فما عذرُ المشيب الى عذاري ... وغيرها

العواطف

لاغروَ ان سمّينا ابا فراس شاعر العواطف ، فهو اخلص شاعر عرفته الآداب العربية ، واصدق شاعر في تصوير اخلاصه ، لا نستثني من جمهورهم احداً . فلقد عاش رقيق القلب ، وافر الشعور ، لطيف التعبير ، ووفّرت له صروف الدهر من الأحزان والنكبات ما أثّر في ذاك القلب ، فزاده رقّةً ، واذاب تلك الحاسّة ، فاخرج شعورها ، والان تلك الغريكة ، فضاعف لطفها ، فأتى بالبدائع العاطفية

فهو اذا اراد ان يصف عبث اصدقائه به ، واخلاصه لهم ، لا يشكو الغدر ، ولا يتشاءم بالبشر عامّةً ، بل يقول ، بكل لين ، عن صديقه المذنب :

يجني عليَّ فاحتو صافحاً ابداً . لا شيء احسن من حانٍ على جانِ !
ويتبعُ الذنب ذنباً ، حين يعرفني ، عبداً ، فاتبع غفراناً بغفرانِ !

واذا اراد تعزية سيف الدولة عن اخته ، لم يعرف كيف السبيل الى ذلك لما يشعر به من الألم ، فاضاع طريق التعزية الباردة الرسمية الى ذكر مشاركته في الحزن ، وذلك افضل بكثير . فبدلاً من ان يقول له مثلاً كقول المتنبي :

اسيف الدولة استنجدْ بصبرٍ وكيف بذل صبرك للجبالِ

اقرَّ بكل بساطة واخلاص :

بي بعض ما بك من حزنٍ ومن جزعٍ ، وقد لجأتُ الى صبرٍ فلم اجدِ !

وهذان بيتان من رثائه لأمّه ، وقد ماتت وهو في الأسر ، نوردهما دون تعليق :

ابا امأه كم بُشرى بقربي اتتكِ ! ودونها الأجلُ القصيرُ !
الى من اشتكي ؟ ولمن أناجي ؟ اذا ضاقت بما فيها الصدورُ !

اما القصائد التي كان يكتبها من أسره ، وهي المعروفة « بالروميات » فلا اعلم كيف يستطيع ناثر ان يشرح ما فيها من العواطف ! تصوّروا ابا فراس ، كما عرفناه ، امير الشجعان ، و « زين الشباب » ، ورجل العاطفة والإخلاص ، والأنفة والإباء ، ينكسر في معركة ويصيبه سهمٌ في فخذه ، فيأسره العدوّ . ويطول أسره وألم جراحه ، وفي بلاده عجوز مسكينة تترقّب اخبار « وحيدها » ، ونسيبٌ امير افنى ابو فراس حياته في خدمته ، وهو مع ذلك لا يظهر مهتماً بأمره ، ولا مكترثاً لرسائله المتعدّدة

تصوّروا كل ذلك وتأملوا بما عساه ان يفيض ذاك القلب الطافح ، وبما عساه ان يخرج من تلك العواطف المختلفة المتدافعة بين جوانحه . . . أسير مسكين يود

ان يطلب فداءه من ابن عمه، ثم يتذكر انه لم يجبه على رسائله، فتهيج فتنته ويُعرض عن إعادة الطلب. ثم يتذكر ان في منبج عجوزاً أملها الوحيد من الدنيا خلاص وحيدها. فيرغم نفسه الابية ويعود الى مراسلة سيف الدولة صاغراً، وهو:

لولا العجوز بمنبج ما (خاف) اسباب المنيّه!

ولا يسهو، في معرض ذلك، عن توصية امه بالصبر والثقة بالله، وصيّة تظهر مقدار تعبُّده لربه، وتسليمه الى احكامه تعالى، فيختم رسالته بهذه العاطفة السامية:

يا أمّتا لا تحزني! وثقي بفضل الله فيّه!
كم حادثٍ عنّا جلا ه! وكم كفانا من بليّه!
اوصيكِ بالصبر الجمـ ـيلِ فانه خيرُ الوصيّه!

ويسوّفه سيف الدولة ويطول التسويف. فيعود الى مكاتبته طالباً ان يأذن له بمراسلة اهل خراسان ليفادوه وينوبوا عن ابن عمه، وفي ذلك من التأنيب ما لا يخفى. فيجيبه سيف الدولة بكلام خشن قائلاً: «ومن يعرفك بخراسان؟» عند ذاك تظهر خدمات الشاعر القديمة حاضرة امام عينيه، ويعود الى عنفوانه فيترع اميره بهذا التلميح:

وإن خراسانَ ان انكرتْ عُلاي فقد عرفتها حلب!

ويبلغه ان والدته اتت من منبج، تتضرّع الى سيف الدولة، فلم تنل منه مطلوباً؛ فيعاوده الحنّ ويرجع الى الاستعطاف اشفاقاً على العجوز فيقول:

يا حسرةً ما اكاد احملها! آخرها مزعجٌ وأوّلها!
بأيّ عذرٍ رددتَ والهةً عليك دون الورى معوّلها؟
أرحامنا منك لم تقطّعها ولم تزلْ دائماً نوصّلها!

ثم يعمد الى هياج حنّ سيف الدولة بالمقابلة بين حالة الامير من العزّ والرفاهية، وحالة الأسير المسكين من الضنك والشقاء:

يا واسعَ الدار، كيف توسعها؟ ونحن في صخرةٍ تزلزلها؟
يا ناعمَ الثوبِ، كيف تبدله؟ ثيابنا الصوف ما نبدّلها؟
يا راكبَ الخيلِ، لو بصرت بنا نحمل اقيادنا وننقلها!

فترى الان صواب حكم الصاحب بن عباد، اذ قابل بين هذا الشاعر الامير الاسير، وذاك الشاعر الامير الضليل، فقال: «بُدئ الشعر بملك، وخُتم بملك!» ونحن لو اردنا ذكر جميع تلك العواطف الرقيقة، والتصاوير الرائعة، للزمنا نقل «الروميات» برمّتها. فنكتفي بهذا القدر مردّدين مع الثعالبي:

«اللهمّ ارحم تلك الروح الشريفة!»